

الرواية والنقد

عند أبي عبيدة

- ١ -

كانت رواية الشعر لا تعدو - أول أمرها - أن تكون بابا من أبواب المتعة الفنية ، يتيح للناس أن يطلوا على ذلك العالم السحري الذي ما يزال يختلب قلوبهم ويفتن ألبابهم . ثم أتبع لهذا الفن في العصر الاسلامي من ملابسات الحياة الجديدة ما عظم من أمره ، ورفع فوق ذلك من قدره ، وتجاوز به هذه المنزلة ، إذ أصبح الى جانب ذلك الاعتبار ضرورة من ضرورات الحس العربي القومي . وقد أخذت مظاهر الحضارة تساوره ، وجعلت أغشية تلك الحياة الجديدة تقوم من دونه ، فكانت رواية الشعر هي الوسيلة التي يجد فيها ذلك الحس حاجته الى مراجعة تلك الحياة البدوية العربية ، وإرضاء روح الحنين التي كانت ما تفتأ تؤزه وتشعره بأشد الفلق ، كأنما تريد أن تنزعه من هذه البيئة الجديدة ، وتمضى به إلى تلك الحياة الأولى التي حيل بينه وبينها ، منذ اجترفت الفتح هؤلاء العرب عن أوطانهم التي نشأوا فيها ، ثم اجترقتهم ظروف الحياة وملابساتها ، وحصرتهم هذه الدنيا الجديدة في نطاقها ، فما يملكون عنها حولا . وهكذا جعلت تنبعث نحو تلك البادية التي تركوها ، والعربي من أشد الناس حنيناً الى وطنه ، فكانت رواية الشعر إحدى الوسائل السهلة القريبة التي أخذت تنهه من ذلك الحنين ، وتسجيب لتلك الحاجة النفسية الملحة ، إذ كانت النافذة التي أتاحت لهم في ذلك الحجاب الكفيف ، يطلون منها على البادية ، ويستحضرون من خلالها صور تلك الحياة الاثيرة . ثم كانت - الى جانب ذلك أيضا - أداة من الأدوات التي يعتصم بها الحس العربي القومي لقاء تلك الأحاسيس الكثيرة الغامرة التي جعلت تأخذه من هنا وهنا

وإذن فقد كانت رواية الشعر نوعاً من الاستجابة الطبيعية للحس الفني العربي ، وبذلك كانت سبيلها الأولى سيلا فنية خالصة أو قريباً من ذلك . ولكن هذه الحياة الجديدة لم تلبث أن تعقدت أسبابها وتنوعت صورها ، وتشعبت بها المسالك المختلفة . فكان لابد لفن الرواية من أن يسلك سبيلها ، ويخضع لما جعلت هذه الحياة تخضع له . وكذلك لم تلبث أن رأينا هذه السيل التي اتخذتها رواية الشعر تذهب في اتجاهين ، وتشعب شعبتين : شعبة فنية تهدف إلى تذوق الشعر وإرضاء الحاسة الأدبية ، وشعبة عليية يتولاها العلماء من أصحاب العربية ، ويقصدون فيها إلى الدرس العلى خالصا ، ويتخذون فيها من هذه الرواية ، أداة لهم ، ويخضعونها لمناهجهم المختلفة في البحث

فأما الاتجاه الأول ، وهو الاتجاه الفني ، فإن الفرق كبير بين ما صار إليه وما كان عليه . ذلك أن الأدب العربي لم يعد - كما كان الأمر من قبل - أدب العرب وحدهم ، ولم تعد الحوافز الفنية - سواء في قول الشعر أم في الاستماع إليه والاستمتاع به - حوافز عربية خالصة ، فقد أخذت الحياة الأدبية تخلص من هذه الارتباطية التي فرضت - بطبيعة الأمر - عليها من قبل ، وجعلت الحياة الجديدة بصورها وألوانها وانجاساتها تداخلها وتشارك مشاركة قوية في توجيهها ، وأصبح للشاعر التي أنشأتها هذه الحياة أثرها البالغ فيها . فقد كان لابد لذلك كله أن تتحرف رواية الشعر بقدر هذا عن الغاية التي كانت تتجه إليها وتزعم لتحقيقها ، وأن يتغير تبعاً لذلك الطابع الذي كان يطبعها ، فتصطنع طابعاً آخر يتجاوب مع هذه المشاعر الجديدة ، ويحقق لها المتاع الفني الذي ترجوه وتستشعر الحاجة إليه

وكما كانت هذه الجماعة الجديدة مزاجاً لم ينضج بعد ، ولم يتم اتلاف مكوناته على وضع ثابت مستقر ، كذلك كانت مشاعر القوم ، وكذلك كانت نزعاتهم في رواية الشعر وتذوقه مضطربة مختلطة ، لا تكاد تستقر على وضع معين ، أو تتجه إلى غاية ثابتة ، إذ كانت العوامل الباطنية التي توجههم وتلون ذوقهم الأدبي مضطربة ، وبذلك

أخذت رواية الشعر في ذلك الاتجاه الفنى أنماطاً مختلفة متلاحقة يتبع بعضها بعضاً ،
ولا يلبث اللاحق أن يغشى السابق ويبطله ويعنى عليه

وذلك عندنا هو تأويل عبارة الجاحظ التى أوردناها فى كتابه « البيان والتبيين »
عن هذا النوع من الرواية ، إذ يقول :

« وقد أدركت رواة المربدين والمسجدين ، ومن لم يرو أشعار المجانين ، ولصوص
الأعراب ، ونسب الأعراب ، والأرجاز الأعرابية القصار ، وأشعار اليهود ،
والأشعار المنصفة ، فإنهم لا يعدونه من الرواة . ثم استبردوا ذلك كله ، ووقعوا
على قصار الأحاديث والقصائد ، والفقر والتنف من كل شئ ولقد شهدتهم وما هم
على شئ أحرص منهم على نسب العباس بن الأخنف ، فما هو إلا أن أورد عليهم
خلف الأحمر نسب الأعراب ، حتى صار زهدهم فى نسب العباس بقدر رغبتهم فى
نسب الأعراب . ثم رأيتهم منذ سنين وما يروى عندهم نسب الأعراب إلا حدث
السن قد ابتدأ فى طلب الشعر ، أو فتيان متغزل ،^(١)

ولارب أن هذه الجملة من كلام الجاحظ تنطوى على أحاديث طويلة عن العوامل
المختلفة التى كانت تسيطر على الاتجاه الفنى للرواية وتوجهه فى هذه الفترة المضطربة ،
ولكن ليس هذا موضع الكلام فى هذه العوامل ، وإنما حسبنا ما أوردنا عن ذلك
الاتجاه

فأما الاتجاه الآخر ، وهو الاتجاه العلمى الذى جاء نتيجة لتطور الجماعة الإسلامية ،
حيث أخذت الحياة العلمية تفرض نفسها ، وأخذ الشعر يصبح مادة من مواد هذه
الحياة وموضوعاً من موضوعاتها ، فقد كان أمراً لا بد منه ، ولا يحصى فى طبيعة
الأشياء عنه . وبذلك أخذت رواية الشعر مكانها فى الدراسات العربية ، وقد كان
لهذه الدراسات أوفر نصيب فى تلك الحياة ، فلا جرم كان للرواية مكانها الظاهر
الممتاز .

(١) البيان والتبيين ٣ : ٢٣٥ ، ط مصطفى محمد ، القاهرة ، ١٩٣٢ م

ولكنها أصبحت بذلك خاضعة للأهداف المختلفة التي تهدف هذه الدراسات إليها ، ولكل هدف منها منهجه وأسلوبه ، فاختلعت بذلك اعتباراتها ، وكثرت وجهات النظر المختلفة لها : كل يراها بعينه ، وينظر إليها من ناحيته ، ويقدرها بقدر حاجته ، ويطلب إليها ما يدخل في نطاق بحثه ودراسته ، وبذلك أيضا أصبحت موزعة بين هذه المناهج المختلفة لعلوم العربية من لغة ونحو وخبر ، كما أصبحت حملة على هذه الفنون ، تابعة لها ، متأثرة بأغراضها وطوايعها . وقد اعتبرها كل أداة من أدواته ، ووسيلة من وسائله

ولهذا الاتجاه موضعه أيضا في كتاب «البيان والتبيين» ، ونصيبه من كلام شيخنا الجاحظ عنه ، وتعرفه به ، ووصفه وصفا خليقا بأن يبعث على التأمل ، إذ يقول :

« ولم أر غاية النحويين إلا كل شمر فيه إعراب ، ولم أر غاية رواة الأشعار إلا كل شمر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج ، ولم أر غاية رواة الأخبار إلا كل شمر فيه الشاهد والمثل . ورأيت عامتهم - فقد طال مشاهدتي لهم - لا يقفون على الألفاظ المتخيرة والمعاني المنتخبة ، وعلى الألفاظ العذبة والمخارج السهلة والديباجة الكريمة ، وعلى الطبع المتمكن ، وعلى السبك الجيد ، وعلى كل كلام له ماء ورونق ، وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور عمرتها وأصلحتها من الفساد القديم ، وفتحت للسان باب البلاغة ، ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ ، وأشارت إلى حسان المعاني . ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام في رواة الكتاب أعم ، وعلى ألسنة حذاق الشعراء أغلب . ولقد رأيت أبا عمرو والشيباني يكتب أشعارا من أقواه جلسائه ليدخلها في باب التحفظ والتذاكر . وربما خيل إلي أن أبناء أولئك الشعراء لا يستطيعون أبدا أن يقولوا شعرا جيدا لمكان إعرافهم في أولئك الآباء ، ولولا أن أكون عيايا ، ثم للعلماء خاصة ، لصورت لك في هذا الكتاب بعض ما سمعت من أبي عبيدة ، ومن هو أبعد في وهمك من أبي عبيدة ،^(١)

(١) المصدر نفسه ٣ : ٢٣٦

فهذا هو مجمل القول في أمر رواية الشعر في هذه الفترة ، كما يمكن أن تعرف من أخبارها ، وكما يؤديه إلينا الجاحظ عنها ، عن مشاهدة وتبع وخبرة وبصيرة ثاقبة نافذة ، ثم كاتفتضيه طبيعة الأشياء ومنطق الأمور . فإذا كان موضع أبي عبيدة منها ، وفي أي منزلة نستطيع أن نزله بين هذه الأنماط المختلفة فيها ؟

— ٢ —

لقد كانت رواية الحياة العربية على النحو الذي اصطنعه أبو عبيدة ، في حذق وبصيرة ودقة ، هو الموضوع الذي أشربه في قلبه ، فعرف به ، واستفاضت به شهرته ، وتميزت به في نظر الناس شخصيته ، إذ كان قد بلغ منه المبلغ الذي لم يستطع أحد من معاصريه أن يجاريه فيه ، أو ينافسه عليه . منافسة يمكن أن تلحقه به . ولعل ذلك هو تأويل كلمة الجاحظ المشهورة في إجمال صفته : « ولم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلم منه » (١) . فالعلم الذي بعينه أبو عثمان هنا هو - فيما نحسب - علم الأخبار ، إذ لا يمكن أن يكون العلم على إطلاقه . ومثل هذا عبارة أبي نواس ، وهو أحد تلاميذه ، في سياق المقارنة بينه وبين الاصمعي ، انه « أديم طوى على علم » (٢) . ثم ما يقوله عنه عالم أهل الكوفة في القرن الثالث ، أبو العباس ثعلب - كما يحكيه عنه ياقوت في سياق ترجمته لأبي عمرو الشيباني - انه « لم يكن في أهل البصرة مثل أبي عبيدة في السماع والعلم » . ثم ما يعقب به ياقوت على هذه الكلمة المنصفة ، وإن كنا نلح في خلالها روح العصبية تسرى وترقرق - ونحن نعرف بعد مبلغ اطلاع صاحب المعجم على التراث الأدبي في عصره - وذلك إذ يقول في تعقيبه هذا : « إني لا أقول إن الله خلق خلقا كان أوسع رواية وعلمًا من أبي عبيدة » (٣)

(١) المصدر نفسه ١ : ٢٧٤ ، وانظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٣ : ٢٥٢ ط السادة ، مصر ، ١٩٣١ م ، ومعجم الأدباء لياقوت ١٩ : ١٥٦ ط دارالمأمون ، مصر ، ١٩٣٨ م
(٢) معجم الادباء ١٩ : ١٥٥
(٣) المصدر نفسه ٦ : ٨٢ . وعبرة أبي العباس ثعلب قلها ياقوت - فيما يبدو - عن الخطيب البغدادي ، في تاريخ بغداد ٦ : ٣٣٠

فهذه هي الجهة الأولى والصفة الرئيسية في شخصية أبي عبيدة العلية: تمثل الحياة العربية تمثلاً صادقاً دقيقاً محيطاً بها ، ورواية هذه الحياة رواية الرجل الثقة البصير المستبطن لها ، المتعقب لأخبارها

وإذن فقد كان أبو عبيدة من طبقة رواة الأخبار الذين عرف الجاحظ بهم ، وذكر بعض خصائصهم ، في تصنيفه الذي أوردناه آنفاً . وذلك - ولا ريب - هو الأصل الأول الذي تجيء بعده وتصدر عنه سائر فرائجه الأخرى ، ومنها الناحية التي عقدنا هذا الفصل لها ، وهي رواية الشعر . فهي في حقيقة الأمر تتبع لذلك الأصل ، وصادرة عنه ، وراجعة إليه . وقد أتيج لنا في غير هذا الموضع أن نفصل القول ببعض الشيء في بيان الصلة بين الأخبار والأقاصيص التي ترددها البادية وبين الشعر ، ورأينا أنهما وجهان في رواية الحياة العربية يقوم بينهما نوع من الصلة وثيق ، يصدر عن تلك الملاحظات التي أوردنا اذ ذاك طرفاً منها ^(١) . وقد كانت هذه الصلة - ولا ريب - مما فتح لأبي عبيدة سبيل رواية الشعر ، وأتاح له بذلك أن يذكر بين رواية الشعر وعلائقه وأصحاب النظر فيه

وأخرى أن أبا عبيدة نشأ نشأته الأولى حين كانت البصرة ما تزال جنباتها تتجاوب بأصداء تلك الخصومات الشعرية التي كان يمثلها جرير والفرزدق والأخطل وأشياعهم ، وكانت البينات العلية فيها ما تزال مأخوذة بتلك الحركة القوية ، تتخذ منها موضوعاً خصباً لدراساتها ، لا تقتصر فيه على رواية شعر هؤلاء الشعراء وشرحه والموازنة بينه ، والمفاضلة بين هذا الشاعر وذاك ، وإنما تمتد إلى ما وراء ذلك وتتجاوز إلى النظر في مذاهب هؤلاء الشعراء أو أنماطهم التي يتخذونها في قول الشعر وصياغته ، وفي الأصول الفنية الأولى التي يرجعون إليها ويمتدون بها ، وتحاول أن ترجع كل نمط من هذه الأنماط الشعرية إلى ما هو أشبه به وأدنى إليه في الشعر الجاهلي . جرير - مثلاً - أشبه بالأعشى ، والفرزدق أشبه بزهير ، والأخطل بالنابغة الذبياني

(١) مجلة الكتاب المصري ، المجلد الثاني ، العدد ٦٤ (٧ مارس ، أبريل ١٩٤٦ م)

وما كان لأبي عبيدة - وقد نشأ في ذلك الجو، وجلس إلى تلك الحلقات، وكان له ذلك الطموح الأدبي - إلا أن يجعل رواية الشعر من الغايات التي يقصد إليها ويعنى بها، وأن يتخذ إليه الوسيلة، فيلتمسه كما يلتمس الأخبار، عند هؤلاء الشيوخ من ناحية، وعند رواة الأعراب الذين مازالوا يقدون على البصرة، من ناحية أخرى.

وكذلك استطاع أن يعقد أسبابه بطائفة من هؤلاء الرواة من أهل البادية، ممن كان أكثر اتجاههم إلى رواية الشعر، ثم يحى الخبر تابعاً له، كجويرية بن أسماء صديق كثير بن عبد الرحمن الشاعر ورواية شعره، ومثل هذين الأخوين اللذين يدينان بما صار لهما في هذه البيئات من مكانة أدبية لصلتهما بحريير الشاعر، وهما: مسحل بن كبيب بن عمران بن عطية بن الخطمي، وأخوه أيوب، ومثهما في ذلك أبو دؤاد بن متم بن نويرة، أبوه متم بن نويرة اليربوعي الشاعر النحوي، وعمه مالك بن نويرة صاحب الخبر المشهور في أيام أبي بكر. ومن هؤلاء الرواة أيضاً أيوب بن صبره حفيد الشاعر الخارجي المشهور: الطرماح بن حكيم، إلى غيرهم ممن اتصل بهم أبو عبيدة، وكان حريصاً على أن يتلقى عنهم، ويجعل منهم مصدراً من مصادره الأصلية

وبذلك كانت له منزلته في رواية الشعر، إلى جانب منزلته في رواية الخبر

وما تدرى أكان أبو عبيدة يطلب الشعر ويلتمس رواته ليحقق لنفسه أداة من أدواته في رواية الحياة العربية، كما تتمثل في الأخبار والقصص، أم كان يطلبه ليكون راوية من رواته، كما كان حماد الراوية في الكوفة، وكما كان خلف الأحمر في البصرة. وسواء أكان هذا أم ذاك، فإن استعداده الطبيعي ومواهبه في تذوق الشعر لم تكن بحيث يتهيأ له أن يكون راوية من رواته كما كان حماد وخلف، فقد كانت تقصر به عن هذه الغاية، بقدر ما كانت مواهبه في القصص العربي تسمو به صعوداً وتذهب به بعيداً، حتى ما يكاد يلحقه فيه لاحق. وبذلك كانت منزلته في رواية الشعر في المكان الثاني بالقياس إلى رواية الأخبار، وظل الشعر بالنسبة إليه أداة من أدواته، على النحو الذي يقرره الجاحظ عن هؤلاء الرواة في النص الذي أوردناه.

ولكن ينبغي أن نقرر هنا أن هذا الحكم ليس على إطلاقه فيما يخص أبا عبيدة ذلك أنه لم يكن من رواة الأخبار بالمعنى القريب اليسير، فيكفيه من القصة أن يروى حوادثها، ويسوق أجزائها، كيفما اتفق له، ويظفر من ذلك بإرضاء الزرع الساذج عند العامة. وإنما كان - كما أتيج لنا أن نرى من قبل - بتعمق ويغفل ويستقصي لالتماس المقومات المختلفة للحياة العربية، حتى يستطيع أن يمثّلها تمثلاً صادقا شاملا دقيقا، ويتعرف جو هذه الأفاصيص تعرفا مستقبصاً دائماً، حتى يحيط بوجوه المختلفة. وقد يكون في تلك الأخبار، مع هذا التقصى، ما يتيج له بعض ذلك، ولكن هنالك - ولا ريب - ما لا يتيج له غير شعر هؤلاء الشعراء الذين عاشوا في ذلك الجو وانطبعا به، ولا يكاد يجد الوسيلة إليه في غير تلك الصور الشعرية التي عبر عنه تعبيراً دقيقاً، وتصوره تصويراً حياً نابضاً. وبذلك كانت دواعي أبي عبيدة إلى رواية الشعر لا تنقف عند مقتضيات القربة لرواية الخبر، كما هو الشأن في عامة الرواة. وجدير بمثل هذا الاعتبار أن يرفع من مكانته في رواية الشعر، ويميزه فيها عن غيره من رواة الأخبار

وكما كان لهذا الاتجاه أثره على ذلك النحو في رواية أبي عبيدة للشعر، كذلك كان له أثره في مبلغ فهمه له، وإدراكه لمعانيه. ذلك أن تمثله للحياة العربية الجاهلية هذا التمثيل، وإحاطته نفسه به وردها ومدركاها، واستغراقه في ذلك، من شأنه أن يجعله أدق إلى فهم ما وراء الصورة الصادرة عنها، وأدق في إدراكها، إذ يجعل معرفته للغة بدالاتها الانفرادية والتركيبية معرفة حية متصلة عنده بمحاثتها، لا معرفة حفظ وتلقين لحسب. ولو أنه اتخذ هذه الحاسة اللغوية الدقيقة المستبطنة لحقائق الدلالات مصدره الأول - من غير أن يكون تفسير معاني الشعر وبيان وجوهه، لبلغ في ذلك مبلغاً ممتازاً، وإن ما بقى من تفسيراته الموثوق بها ليدلنا هذه الدلالة. ولكن الرجل كان - فيما يبدو - مفتوناً بما أصابه من توفيق في الناحية الاخبارية، فعمله ذلك على أن وضع الأخبار والالتباس في المكان الأول في تفسير الشعر، وإن كانت مما يحتمل الوضع والصناعة والتلفيق، وكانت تفسيراته بذلك عرضة للضلال

والخطأ . ولولا أن الأصل فيه والناحية الأولى في شخصيته العلمية هي رواية الأخبار لا رواية الشعر ، لكان الأجدر به ، والأولى أن يكون في المكان الأول عنده . في فهم الشعر وتفسيره ، هو ذلك الذي أتيح له من معرفة اللغة معرفة حية ، اجتمعت لها عناصر الحياة من هذه الدراسات التي أخذ نفسه بها ، واستغرق أعظم الاستغراق فيها

— ٣ —

وبعد فهذه وجهة أبي عبيدة في رواية الشعر ، وتلك هي سبيله إليه ، وذلك مبلغ ما أتيح له منه ، ولا ريب أن لهذا أثره المباشر في توجيه نزعة النقدية ، وفيما أثر عنه من أحكام أدبية

فهناك أثر عام لاصطناع رواية الأخبار هو الذي أشار إليه الجاحظ من الصدوف عن مواطن انجمال الفن في الأثر الأدبي أو الشعري ، والغباء عن دقائق الفطنة التي يتضمنها ، سواء في لفظه أم في أسلوب صياغته ، أم في توقيع موسيقاه ، أم في دلالة ومعناه ، إلى غير ذلك من منارات الروعة الفنية . كأن انصراف الراوية الاخباري إلى تتبع الأخبار وتقصيها وتلقفها يفقده ملكة التذوق الأدبي ، والقدرة على ملاحظة الخصائص الفنية التي يمتاز بها الشعر ، إذ كانت هذه الخصائص أمورا ليست من ظاهر الحياة التي تصدر هذه الأخبار - في الجملة عنها - ولكنها من باطن الروح ، وإذ كانت الوسيلة إلى إدراكها ليست الحواس الظاهرة ، بل المشاعر الخفية الباطنة . وإذ كان هؤلاء الأخباريون ، أو عامتهم ، إنما يعيشون في عالم من الحوادث يتبعونها ، وشتان بين هذا الذي يعيشون فيه ، ويعمرون مداركهم به ، وبين عالم المعاني ودقائق الشعر ولطائف البيان

فذلك هو الأثر العام لرواية الأخبار ، وتلك هي جملة القول في تكيف موقف الراوية الاخباري من الشعر . وضرب الجاحظ المثل لذلك - كما وأينا - بأبي عمرو الشيباني الكوفي ، معاصر أبي عبيدة ، في إشارته العابرة إليه ، وقد ذكر قصته في موضع آخر ، وهي تفصل لنا ما أجمله من الرأي هناك ، وتوضح ما أشار إليه ، كما تبين لنا مبلغ ما جنت رواية الأخبار على تذوق الشعر . قال :

— ٦٧ —

« وانا رأيت أبا عمرو الشيباني ، وقد بلغ من استجادته لهذين البيتين ، ونحن في المسجد يوم الجمعة ، أن كلف رجلا حتى أحضره دواة وقرطاسا ، حتى كتبهما له . وأنا أزعم أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعراً أبداً . ولولا أن أدخل في الحكم بعض الغيب ، لرعيت أن ابنه لا يقول شعراً أبداً . وهما قوله :

لا تحب الموت موت البلى فإنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ، ولكن ذا أقطع من ذاك لذل السؤال ،

ثم يقول الجاحظ في التمتع على هذا : « وذهب الشيخ الى استحسان المعنى ، والمعاني مطروحة في الطريق ، يعرفها العربي والعجمي ، والبدوي والقروي . وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخفيف اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع وجودة السبك . فإنما الشعر صياغة وضرب من النسيج وجنس من التصوير ،^(١)

وإذن هؤلاء الأخباريون الذين يمثلهم أبو عمرو الشيباني إذا اتجهوا الى الشعر ونظروا فيه ، فإنما يقفون عند هيكله العام وخطوطه الأولية الظاهرة ، وكأنهم لا يرون فيه إلا ما يفترونه في الخبر ، فهم يخضعون لذلك المقياس ، فأما ما وراء ذلك الهيكل العام والمعنى « المطروح في الطريق » من الخصائص الفنية التي لا يكون الشعر شعراً إلا بها ، فذلك مما صرفهم عنه ، وباعد بينهم وبينه ، ذلك الجو الذي أحاطوا أنفسهم به ، وطبعوا حياتهم العقلية بطابعه ، وخضعوا لمقتضياته وملابساته ، وهو جو الأخبار والحوادث

ولاريد أن روح الفن يمكن أن تداخل كل شيء في الحياة . فكأن أن للشعر فنيته التي تتمثل في تلك الدقائق التي أشار الجاحظ إليها ، فللأخبار أيضاً فنيته في السياق والسرد والتنظيم والتنسيق وجودة العرض ومراعاة النسب وإظهارها في صورة أدنى إلى الحياة وأقرب إلى مداخلة النفس . ولكن هذا شيء وذاك شيء آخر . وقد يكون

(١) الحيوان للجاحظ ٣ : ١٣١ ، نشرة عبد السلام هارون ، ط مصطفى البابي الحلبي مصر ، ١٩٣٨ م ، وانظر : دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ، ص ٨٥ ، نشرة رشيد رضا ، ط الموسوعات ، ١٣٢١ هـ

الرجل عظيم الحظ جليل الموهبة في فن القصص ، دون أن يكون له في فن الشعر ولا في تذوقه واستبطان لطائفه والاهتزاز لروائعه نصيب ، ودون أن يكون في هذا ما يمكن أن يضع من شأنه أو يفيض من منزلته . وقد رأينا كيف كانت روح الفن الأخباري تكاد تبلغ ذروتها عند أبي عبيدة في عصره . ولكن ذلك لا يقتضي أن تكون له هذه الروح الفنية في تذوق الشعر ، وهو الأمر الذي يبدو لنا من خلال درسه ، بالرغم مما نعرف معرفة اليقين من حسن فهمه له ، وقد اجتمع له كثير من وسائله ، ولكن الفهم مرحلة دون مرحلة التذوق . وقد كان تلميذه أبو خاتم السجستاني يقول في صفته إنه « كان مع علمه إذا قرأ البيت لم يقم إعرابه ، وينشده مختلف العروض ، (١) . ولهذا دلالاته على مقدار حظ أبي عبيدة من الذوق الفني الشعري . وقد رأينا الجاحظ مع ما يبدو من شدة إعجابه به ، ومبالغته في الثناء عليه ، لا يسلم له هذه الناحية ، فهو يغمزه ويعرض به في سياق حديثه عن مبلغ تذوق الأخباريين للشعر ، وما يمنعه من التصريح برأيه وتصوير أمره إلا ما يضمن من إجلاله له وإكباره لعمله ، وما يحس من الحرج في مثل ذلك

فأبو عبيدة لم يكن ، إذن ، بدعا بين رواة الأخبار ، من ناحية الذوق الفني . وإذا كان الذوق الفني هذا هو الأصل في ملكة نقد الشعر ، فإننا نستطيع أن نخالص إلى القول في غير تحرج أن أبا عبيدة على جلالته في الناحية العلمية ، لم تكن له هذه الملكة ، كما نستطيع القول بأن ما كان يتكلفه من نقد الشعر والموازنة بينه لم يكن يصدر فيه عن طبع أصيل في النقد ، وإنما هو - في حقيقة أمره - نقد رجل عالم يرجع فيه إلى آراء شيوخه وأساتذته ، كآبي عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب ، أو يخضع فيه لبعض الاعتبارات الشكلية التي لا تكاد تمت بسبب إلى الإصالة الفنية

وهذا الاعتبار كان رجلا كآبي نواس - وهو تلميذه ومن نعرف في إكباره له - ينظر إلى أحكامه الأدبية بشيء من الاستخفاف ، فلا يكاد يقيم لها وزنا . فقد سئل

(١) معجم الأدباء ١٩ : ١٥٦

ابونواس مرة عن جرير والفرزدق أيهما أشعر ، فقضى لجرير وفصله على الفرزدق ،
كما يحكى صاحب العمدة . فقليل له : إن أبا عبيدة لا وافقك على هذا . فقال : ليس
هذا من علم أبي عبيدة

وكثير من أحكام أبي عبيدة الأدبية تجيء في الرواية مسندة الى هذا أو ذاك
من شيوخه ، على أنا قد نفع أحيانا على شيء من هذه الأحكام يجيء مجردا من ذلك
الاسناد ، فيقع في الوهم لأول وهلة ، أنه حكم له قد استقل بالرأى فيه . ونجد لذلك
مثلا فيما ذكره الجاحظ - في سياق كلامه عن الضب - عقب إيراده هذه القطعة من
شعر امرئ القيس ، في وصف الغيث :

ديمة هطلاء فيها وطف	طبق الأرض تحرى وتدر
تخرج الضب اذا ما أشجذت	وتواريه اذا ما نعتكر
وترى الضب ذفيقا ماهراً	ثانيا برئته ما ينعفر

فقال أبو عثمان في عقب ذلك : وكان أبو عبيدة يقدم هذه القصيدة في الغيث
على قصيدة عبيد بن الأبرص ، أو أوس بن حجر ، التي يقول فيها أحدهما :

دان مسف فويق الأرض هيدبه	يكاد يدفعه من قام بالراح
فن بنجوته كمن بمقوته	والمسكن كمن يمشى بقرواح

وأنا أنعجب من هذا الحكم ، (١)

فهذا الحكم الأدبي الذي يحكيه الجاحظ عنه في المناظرة بين هاتين القطعتين يبدو
باديء الرأي أنه صادر عنه ، وأنه مستقل به . وقد اكتفى الجاحظ في التعليق عليه
بالتعجب منه ، على أنا نستطيع بشيء من التتبع أن نعرف من أين صدر أبو عبيدة
بهذا الحكم الذي يتعجب منه أبو عثمان ، فها هو ذا صاحب الشعر والشعراء ، يحكى في
الفصل الذي عقده لامرئ القيس هذا الخبر : قال يونس النحوى : قدم علينا ذو

(١) الحيوان ٦ : ١٣١ - ١٣٢

الزمة من سفر ، وكان أحسن الناس وصفا للمطر ، فذكرنا له قول عبيد وأوس
وعبيد بنى المسحاس فى المطر ، فاختار قول امرئ القيس :

دعته هطلام فيها وطف طبق الارض تحرى وتدر،^(١)

فهو - كما نرى - مقلد فى هذا الحكم الذى كان الجاحظ يتمعجب منه ، كما هو فى
معظم أحكامه الأدبية ، ولكنه مع هذا مقلد فى حدود هذه الشخصية العلمية التى
تكونت بين صور الحياة العربية الصميمة وآثارها الأدبية التى تحمل طابعها
وتتسم بخصائصها ، فهو فى الواقع تقليد تلونه هذه الشخصية بلونها ، وتخضعه قدر
ما تملك لطبيعتها ومزاجها

ومن هذا ما نلاحظه فى جميع هذه الأحكام الأدبية ، سواء ما يبدو أنه مستقل فيها ،
أم ما يصدر عن غيره فى إقرارها ، فى جميع هذه الأحكام يبدو أنه من المحافظين الذين
يؤثرون القديم ، ويعتبرونه المثل الذى لا بد للشاعر المحيد من احتذائه ورعاية
خصائصه . وبذلك لم يكن يرى من شعراء الاسلام أحدا جديرا بوصف الشعر غير
الشعراء الثلاثة : الأخطل وجريمر والفرزدق^(٢) ، لأن الأخطل - كما كان يقال فى مجلس
أستاذه أبى عمرو بن العلاء - يشبه النابغة ، ولأن جريمر يشبه الأعشى ، ولأن
الفرزدق يشبه زهير^(٣) . أما أول هؤلاء الثلاثة مكانا عنده فالأخطل ، لأنه - كما
يمحكى صاحب الأغاني عنه - « أشبه بالجاهلية . وأشدهم أسر شعر ، وأقلهم سقطا »^(٤)
فالمقياس الأدبى عنده هو الشعر الجاهلى بتلك الصفات الغالبة عليه ، من قوة الأسر
وإحكام الديباجة فى تركيب الجملة وبناء القصيدة ، ومن الروح البدوية فى الصور

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١ : ٥٨ ، ط دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٦٤ هـ

(٢) « شعراء الاسلام الأخطل ثم جريمر ثم الفرزدق » الأغاني ٨ : ٢٨٦ ، ط دار
الكتب المصرية

(٣) انظر مثلا : الأغاني ٨ : ٥

(٤) المصدر نفسه ٨ : ٢٩٢

الشعرية ، وعلى مبلغ توفيق الشاعر في التوفية لهذه الصفات وبجارية هذه الروح
تكون مكانته الشعرية في اعتبار هذه المدرسة التي ينتسب إليها أبو عبيدة

وليست الجاهلية التي يصطنع منها هذا المقياس زمنا معيناً ، بل هي عنده ذلك
الأسلوب وهذه الخصائص ، فإذا خرج شاعر جاهلي عليها أو انحرف عنها ، فليس
هناك ، كهدى بن زيد المبادي ، فهو في رأيه أو في رأى هذه المدرسة ، في الشعراء
بمنزلة سهيل في النجوم : يعارضها ولا يجري بجراها ، (١) . ولعل في هذه القصة
التي يوردها صاحب الأمل ما يزيد هذا المذهب عنده وضوحاً :

وقال أبو حاتم : أتيت أبا عبيدة ومعى شعر عروة بن الورد ، فقال لي : ما معك ؟
فقلت : شعر عروة . فقال : فارغ حمل شعر فقير ليقرأه على فقير . فقلت له : ما معى
غيره ، فأشدني أنت ما شئت . فأشدني :

يارب ظل أعقاب قد وقيت بها	مهرى من الشمس والأبطال تجتلد
ورب يوم حمى أروع عقوته	خيل اقتصاراً وأطراف القناقص
ويوم هو لأهل الخفض ظل به	لهوى اصطلام الوغى وناره تقد
مشهراً موقني والحرب كاشفة	عنها القناع وبحر الموت يطرد
ورب هاجرة تغلى مراجلها	مخزتها عطايا غارة تخد
تجتأب أودية الأفراع آمنة	كأنها أسد تقتادها أسد
فإن أمت حفت إنني لأمت كذا	على الطعان وقصر العاجز الكد
ولم أقل : لم اساق الموت شاربه	في كأسه والمنايا شرع ورد

ثم قال : هذا الشعر إلا ما تعلقون به أنفسكم من اشعار المخانيث ، (٢)
فأبو عبيدة يرفض - في هذا الخبر - شعراً جاهلياً هو شعر عروة بن الورد ،

(١) المصدر نفسه ٢ : ٩٧

(٢) الأمل لأبي علي الثاني ١ : ٢٦٥ - ٢٦٦ ط دار الكتب المصرية ، ١٩٢٦ م

ويؤثر عليه شعرا إسلاميا هو شعر قطري بن الفجاءة . والعلة الظاهرة في ذلك أن شعرة قطري هذا أكثر جاهلية في صياغته وصوره ، وأشد تحقيقا لمعانى الحياة البدوية والفروسية العربية ، من شعر عروة . وإن كان ينبغي ألا تغفل شيئا آخر قد يكون له أثره في هذا الإيثار إلى جانب ما يبدو لأول النظر ، وهو أن قطري بن الفجاءة شاعر خارجي ، وأبو عبيدة معروف بنزعة الخارجية ، وهي النزعة التي ترجع عندنا - في بعض ما ترجع إليه - إلى ذلك المزاج البدوي الذي كوته له حياته العقلية الطويلة بين صور البداوة وآثارها واستغراقه فيها . فالامر - كما نرى - قريب بعضه من بعض . إذ كانت خارجية أبي عبيدة ليست في أكثر أمرها إلا مظهرًا من مظاهر التوجيه البدوي عنده

ولعل ذلك كان من أول الأسباب التي جعلته لا يكاد يرى في الشعراء المحدثين أحدا أجدر بوصف الشعر من السيد الحميري وبشار بن برد (١) . فهما عنده أشعر هذه الطبقة من الشعراء ، ونستطيع أن نقدر هذا على وجهه إذا نحن عرفنا أن هذين الشاعرين كانا أحرص أهل طبقتهم على الخصائص التقليدية للشعر العربي . فأما السيد فكان - فيما يبدو لنا - أطبع أهل عصره على الأسلوب البدوي ، حتى كان الاصمعي على تحافيه عنه ، وإنكاره لمذهبه السياسي الذي كان يتمثل في شعره ، يقول عنه : وقبحه الله ! ما أسلكه لطريق الفحول ! لولا مذهب ولولا ما في شعره ما قدمت عليه أحدا من طبقتهم (٢) . وكذلك كان رأي العتيبي فيه ، إذ يقول عنه : ليس في عصرنا هذا أحسن مذهبًا في شعره ، ولا أنقى الفاظًا من السيد (٣) . وحكي غانم الوراق أنه خرج إلى بادية البصرة ، فصار إلى عمرو بن تميم ، فجعل ينشدهم لذي الرمة وجري ، ثم أنشدهم للسيد . قال : دجعلوا يمرقون لانشادي ويطربون . وقالوا :

(١) انظر : الأغاني ٧ : ٢٣٢

(٢) المصدر نفسه ٧ : ٢٣٢ ، وانظر رواية أخرى عن التوزي أيضا بعد هذا الموضع ٧ : ٢٣٦

(٣) المصدر نفسه ٧ : ٢٤٧

لمن هذا ؟ فأعلمتهم . فقالوا : هو والله أحد المطبوعين . والله ما بقي في هذا الزمان مثله ، (١)

فذلك هو ما جعل أبا عبيدة يقبل على شعر السيد الحميري ويكثر من روايته ، ويقدمه ، بالرغم من مخالفته له في المذهب السياسي . وأما بشار فكذلك كان شأنه في جملة القول ، حتى كان الاصمعي يجعله خاتمة الشعراء ، وإن كان ينزع بشعره في بعض الاحيان نزعة تجديدية . ويبدو لنا أنه كان هنالك نوع من الصلة الشخصية بين أبي عبيدة وبشار ، وأنه كان لهذه الصلة شيء من الأثر في إعجابه به وتقديمه له . ولكننا لا نشك في أن ساوك بشار بشعره مسلك الشعراء المتقدمين ، كان من أول الاسباب التي ذهبت بأبي عبيدة الى ذلك المذهب فيه . ولقد كان شديد الإعجاب بميمته :

أبا جعفر ما طول عيش بدائم ولا سالم عما قليل بسالم (٢)

ونحن نعلم أن هذه القصيدة كانت من أحسن شعر بشار وأشدّه إحكاماً ورصانه عبارة ، وإثارةً للديباجة العربية القوية الصريحة ، كما أنها كانت تقترن في منهجها الفني بميمتي جرير والفرزدق :

— نحن بزوراء المدينة ناقتي حنين عجول تبغني البو رائم
— ألا حي ربيع المنزل المتقادم وما حل مذحلت به أم سالم (٣)

فأكبر الظن عندنا أنه كان لصياغة هذه القصيدة ، وذهابها لمذهب شعر جرير والفرزدق ، من أول ما أنزلها تلك المنزل في نفس أبي عبيدة ، إلى جانب ما كانت تسبغه عليها الظروف الملازمة لإنشائها في البصرة ، والحالة النفسية في بيئاتها المختلفة

(١) المصدر نفسه ٧ : ٢٣٨-٢٣٩

(٢) « أبو عثمان النازي : سمعت أبا عبيدة يقول : ميمية بشار هذه أحب إلى من ميمتي جرير والفرزدق » الأغاني ٣ : ١٥٨

(٣) أنظرهما في نقائس جرير والفرزدق ٢ : ١٠١ ، ط الصاوي

تجاه الدولة الجديدة ، بما لا نستطيع أن نبرى أبا عبيده من التأثير في حكمه عليها .
ومهما يكن من أمر ، فانتا نرى - ولاريب - في مثل هذه الاحكام
الادبية ، وفي هذه النزعة المحافظة في النقد ، أن أبا عبيدة كان شديد الوفاء
لثقافته العربية البدوية الجاهلية ، شديد الانطباع بها . ولاريب أيضا أن كل
حكم من هذه الاحكام التي أثرت عنه يمكن أن ينظر فيه على حدة ، وأن
يندين الباحث فيه أسبابا وعوامل مختلفة ، على النحو الذي عرضنا لشيء منه .
ولكننا نحسب أن إكبار القديم كان أول هذه العوامل سلطانا على عقل
أبي عبيدة ، وأفواها توجيها لأحكامه الادبية ، الى جانب ما رأينا من ضعف
منكته في تذوق الشعر ونقده .

وهناك ناحية أخرى في النقد نستطيع أن نرى
فيها أبا عبيدة العالم الذي يعتمد في نقده على العلم والرواية ، وهي نقد الشعر
من حيث تمييز الموضوع منه والاصيل والزائف والصحيح ، فان فئة الناس
برواية الشعر كما رأينا في أول هذا الفصل ، جعل منها صناعة يتنافس
مصطنعوها في التماس وسائلها ، والافتنان في توسيع دائرتها ، وكفاية الحاجات
المختلفة في هذه السوق الجديدة ، ، وإذ ذاك لم يعد تلقى الشعر وحده كافيا
في إرضاء هذه السوق المنهومة الرغبة التي لاتشبع ولا تنقش ، ثم في إرضاء روح
المنافسة بين الرواة . ومن هنا نشأت بين هؤلاء الرواة صناعة وضع الشعر ،
فكان الواحد منهم ، من أصحاب الموهبة الفنية والقدرة على قول الشعر ، يعتمد
على موهبته هذه ويستغلها في صناعة الأشعار على غرار الشعر القديم ، وإزجاء
ما يصنع من ذلك الشعر الزائف في معرض الشعر الاصيل ، على نحو قريب
ما نعرف في أيامنا هذه عند تجار التحف الاثرية . وقد عرف بهذا من أهل
البصرة خلف الأحمر ، كما عرف به حماد الراوية من أهل الكوفة . بل يظهر
أن هذا الفن الجديد كانت له فنتته التي تجاوزت منطقة الملابس التي أشرنا
إليها ، فترى أن بعض من عرفوا بالتورع والتأثم والدقة لم يستطيعوا في بعض
الاحيان أن يتحصنوا من هذه الفتنة ، ومن ذلك - فيما نحسب - ما روى من
هذا القليل عن أبي عمرو بن العلاء .

وبذلك انفتح لأصحاب الشعر هذا الباب من النقد، ينفذون منه الى دفع هذا النوع من الفساد، ثم كان لهم بعد ذلك سيلان متميزتان: سيل الشعر له أو أصحاب الذوق الشعري، وسيل العلماء أصحاب الرواية والمقاييس العلمية فاما المنهج الأول فلعلنا نستطيع أن نمثله في هذه القصة التي يرويها أبو عبيدة عن صاحبه بشار أنه سمعه يقول - وقد أنشد في شعر الأعشى هذا البيت :

وأنكرتني، وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلعا:-

هذا بيت مصنوع ما يشبه كلام الأعشى، قال أبو عبيدة: ولما كان بعد هذا بعشر سنين، كنت جالسا عند يونس، فقال: حدثني أبو عمرو بن العلاء أنه صنع هذا البيت، وأدخله في شعر الأعشى. فجعلت حينئذ ازداد عجباً من فطنة بشار، وصحة قريحته، وجودة نقده للشعر، (١)

فها نرى أن الذوق الفني هو الذي استشعر الفرق بين هذا البيت المنحول للأعشى وبين ما عرف من شعره، فحكم بأنه مصنوع. ولكن بشاراً لم يكن شاعراً خصب، ولكنه كان قبل ذلك عالماً بالشعر دارساً له، وقد مكنته شاعريته من إدراك الطعوم المختلفة والظلال المتفاوتة التي يتميز بها كل شاعر عن الآخر، وبذلك صح حدسه وأصاب نقده. وشأن بشار في هذا هر شأن بعض الرواة الذين كانت لهم هذه الشاعرية أو ذلك الذوق الفني، كخلف الأحمر. ويحكى ابن سلام أن قائلاً قال له: «إذا سمعت أنا بالشعر واستحسنته فما أبالي ما قلت فيه أنت وأصحابك»، فقال له خلف: «إذا أخذت أنت درهما فاستحسنته، فقال لك الصراف إنه ردى، هل ينفعك استحسانك له؟» (٢)

وأما المنهج الثاني فيمكن أن نمثله في هذه القطعة التي أوردها صاحب المزهري عن كتاب الأيام لأبي عبيدة، قال: «وأنشد أبو عبيدة في كتاب أيام العرب، لهند ابنة النعمان :

(١) الاغانى ٣ : ١٤٣

(٢) طبقات الشعراء ص ٤ ط لندن.

ألا من مبلغ هندا رسولا فقد جدد التغير بعنفغير
فليت الجيش كلهم فداكم ونفسي والمرير وذو السرير
فإن تلك نعمة وظهور قومي فيسانعم البشارة للبشير

ثم قال أبو عبيدة: وهي مصنوعة لم يعرفها أبو بردة، ولا أبو الزعراء، ولا أبو فراس، ولا أبو سريرة، ولا الأغطش. وسألهم عنها قبل مخرج إبراهيم بن عبد الله بستين، فلم يعرفوا منها شيئا، وهي مع نقيضة لها أخذت عن حماد الراوية، (١)

فذلك أسلوب آخر في هذا الفن من النقد لا يعتمد على القطعة والتبرجة أو الذوق الفني، كما رأينا في الأسلوب الأول، وإنما يعتمد على المعرفة والرواية والتتبع والتحري، كما نرى فيما يحكيه أبو عبيدة عن نفسه في هذه القطعة ولكن الأمر هنا كالأمر هناك. فكما رأينا في المنهج الفني أن العلم بالشعر وروايته ودراسته بما لا بد منه، ولا غناء عنه، في ذلك اللون من ألوان النقد، فكذلك الأمر هنا في هذا المنهج القائم أول شيء على العلم والدرس والرواية. فإنه مهما يكن الدارس للشعر، ومهما يكن أثر الاستغراق في هذه الرواية على الاتجاء الفني، فإنها تاركة عنده - ولا بد - نوعا من الذوق، لعله لا يكون صادرا عن موهبة فنية، ولكنه يستطيع أن يتبين به على وجه ما شيئا من الفرق بين شعر وشعر. وإن يكن الشأن الأول في هذا المنهج إنما هو للعلم والمعرفة والرواية والمداينة، ثم يحى هذا النوع من الذوق رافدا له وكذلك كان أبو عبيدة فيما نرى. وإذا كان يروى لنا في القطعة المأخوذة من كتاب الأيام أنه يجعل معتمده في تعرف صحيح الشعر من مصنوعه على قول الرواة وشهادة أهل البادية، فليس في ذلك ما يفتني إحساسه بأن في ذلك الشعر شيئا يريه، مما يجعله على سؤال هذا أو ذاك في أمره، والتماس الأخذ بالثقة في الحكم عليه، كما نستطيع أن نرى ذلك في هذا الخبر الذي يرويه ابن سلام عنه، قال:

(١) المزمع للسيوطي ١: ١٠٩، ط محمد علي صبيح، مصر

واخبرني أبو عبيدة : أن ابن دؤاد بن متم بن نورة قدم البصرة في بعض ما يقدم له البدوي ، في الجلب والميرة ، فنزل النحيث فأتيته أنا وابن نوح ، فأثناء عن شعر أبيه متم ، وقنا له بحاجته ، وكفيته ضيعته ، فلما نفذ شعر أبيه جمل يزيد في الأشعار ويصنعها لنا ، وإذا كلام دون كلام متم ، وإذا هو يحتذى على كلامه ، فيذكر الموضع الذي ذكرها والوقائع التي شهد بها . فلما توالى ذلك علمنا أنه يفتعله (١)

وهكذا نرى في هذا الفن من النقد أبا عبيدة العالم الراوية قبل كل شيء كما رأينا في ذلك الفن الآخر

• • •

وهناك ناحية أخرى تتصل بالنقد اتصالا قريبا ، وما نحب أن نفرغ من هذا الفصل قبل أن نعرض لها ، ونشير إلى أثر أبي عبيدة فيها ، وهي ناحية تصنيف الآثار الأدبية ، إذ كان ذلك التصنيف يعتمد في حقيقة أمره على النظر العام الشامل ، وعلى نوع من التجريد في اعتبار هذه الآثار وتقييمها وملاحظة ما بينها من روابط وفروق ، تجمع متشابهها وتميز متباينها ، على حسب وجهة النظر إليها ، فهناك ، مثلا ، نوع من التصنيف يتجه إلى مواطن الآثار الأدبية ، وهناك نوع آخر يتجه إلى فنونه

أما مواطن الأدب بالنسبة لذلك العصر فأكثر ما كان يمكن أن تعنيه هي القبائل التي ينتسب الشعراء إليها . وقد كتب أبو عبيدة عن هذه القبائل طائفة من الكتب لم يصل إلينا منها إلا أشقات قليلة موزعة في كتب الأدب المختلفة وقد عرض - فيما يبدو - فيها لشعر هذه القبائل على نحو ما . والكلام عن مكانات القبائل في الشعر ، والموازنة بينهم فيه قديم ، منذ كان الشعراء السنة قبائلهم المدافعين عنهم والمذيعين لمآثرهم ، فلا جرم أن كانت الموازنة بينهم مرتبطة بالمفاخرة بين القبائل التي يمثلونها . وأكبر الظن أن علم أبي عبيدة في هذا كان علم رواية ، على ما هو الغالب عليه

(١) طبقات الشعراء ص ١٤ ط لندن :

ف تصنيف الشعر باعتبار القبائل سبيل قائمة ، سار أبو عبيدة فيها كما سار غيره من الرواة ، ولكن الشيء الذى يلفت النظر فى تصنيف الشعر باعتبار موطنه هو تصنيفه إلى شعر بدوى صدر عن البادية ، وشعر حضرى صدر عن المدن أو القرى ، ولعل هذا هو أصل ما نجده عند ابن سلام فيما بعد ، فى الجزء الاول من كتابه الذى جعله للشعراء الجاهليين ، فذكر طبقاتهم طبقة طبقة ، ثم أفرد بعد ذلك شعراء القرى العربية بطبقة على حدة . وها هو ذا نص أبى عبيدة ، كما أورده السيوطى إبراهيم بن محسن . قال :

« الشعراء فى الجاهلية من أهل البادية أهل نجد ، منهم امرؤ القيس والناطقة وزهير ودريد بن الصمة ، ومنهم كثير فى الاسلام ، فهؤلاء الشعراء الفحول الذين مدحوا وغشروا وذموا ووصفوا الخيل والمطر والديار وأهلها . وأشعر أهل المدن أهل يثرب وأهل الطائف وعبد القيس ، وليس فى بنى حنيفة شاعر ، (١) . وقد روى عنه فى مواضع آخر أن أشعر أهل المدن أهل يثرب وأن أشعر أهل يثرب حسان بن ثابت . أما أهل الطائف وعبد قيس وهم أهل البحرين فتختلف الروايات عنه فى المفاضلة بينهما ، على أن أشعر أهل الطائف عنده هو أمية بن أبى الصلت

والذى يعنينا من هذا هو تاريخ الاتجاه الى تصنيف الشعر العربى تبعاً للبلدان التى ينتسب الشعراء اليها ، وهو التصنيف الذى استفاد فيما بعد ، وإن كانت استفادته ترجع الى عوامل أخرى ليس هذا موضع الكلام عنها .

فأما تصنيف الشعر حسب فنونه . وهى تلك الأبواب العامة التى قيل إن الشعر العربى موزع بينها كالمذبح والرثاء ، والغزل والهجاء ، والزهد والوصف فيبدو أن ذلك أمر لم يكن قد آن بعد أو أنه ، فى تلك الفترة من الزمن ، إذ كانت أسبابه لم تكن قد تهيأت له . وها هى ذى المجموعات الشعرية التى

(١) المحاسن والماوى . ٢ : ٩٦ ط السعادة ، القاهرة ، ١٩٠٦ م

وضعت إذ ذاك كالمفضليات والاصمعيات ونوادر أبي زيد الانصارى وجمهرة
أبي زيد القرشى (على شئ من الريبة يداخل هذه الأخيرة) ، ليست إلا نوما
من التسجيل لروايات أصحابها ، بعد شئ من الاختيار القائم على الاعتبار الفنى
أو الاعتبار اللغوى . وقد نرى فى الجمهرة نوعا من التصنيف ولكن الجمهرة
- كما قلنا - مريبة ، من ناحية ، وهذا التصنيف ليس هو الذى نعينه من
ناحية أخرى ، إلا ما نرى من أفراد المراتى يباب على حدة . على النحو الذى
نراه عند ابن سلام .

وأمر المراتى خلىق بالنظر والتأمل ، إذ يبدو أنها كانت أسبق فنون
الشعر إلى الانفراد بمكان خاص بها فى كتب الشعر كما رأينا ، وأكبر الظن أن
أبا عبيدة نفسه عنى بها عناية خاصة ، وقد حكى البيهقى عنه أنه قال : « أحسن
مناطق الشعر المراتى والبكاء على الشيب . وكان بنو مروان لا يقبلون الشاعر
إلا أن يكون راوية للمراتى ، ويقولون إن فيها ذكر معالى الأمور » ، ثم قال
البيهقى : « وقيل لأبى عبيدة : ما أجود الشعر ؟ قال النمط الأوسط ، يعنى المراتى .
قال : وسألت أعرابيا : ما أجود الشعر عندكم ؟ قال : مارثينا به آباءنا وأولادنا .
وذلك أنا نقولها وأكبادنا تحترق »^(١) . وبين كتبه التى اندثرت واحتفظ بها ابن
النديم باسمها كتاب اسمه « كتاب النوائح » يغلب على الظن أنه كسره أو جزءا
كبيرا منه على قصائد الرثاء ومقطوعاته

ولكن أبا عبيدة إذا كان لم يتجه - كما رأينا - إلى تصنيف الشعر بحسب
فنونه ، على النحو الذى عرف فيما بعد ، فإنه ل يبدو لنا أنه لم يقف عند الرواية
والجمع والاختيار ، وإنما تجاوز ذلك وسلك إلى التصنيف سيلا أخرى ، هى
تصنيفه بحسب موضوعاته الجزئية التى يمكن أن تندرج تحت تلك الفنون العامة
التي لم يكن عرف التصنيف إليها بعد . ذلك أن اتجاهه إلى تصوير الحياة العربية ،

(١) المحاسن والمساوى ٢ : ٩٦ ، ط السادة ، القاهرة ، ١٩٠٦ م

والتعريف بنواحيها المختلفة ، كما رأينا من قبل ، قد أخذه بتصنيف الكتب لتحقيق ذلك الاتجاه ، يتناول فيها موضوعات هذه الحياة ، كل موضوع في كتاب خاص به على النحو الذى نستطيع أن تتمثل صورة منه في فهرست كتبه التى أوردها ابن النديم ، ولذا كان الشعر من أصل العناصر فى نواحي الحياة العربية وفى تصويرها ، فإن ذلك الاتجاه قد استتبع بطبيعته أن تتضمن هذه الكتب النصوص الشعرية التى تتصل بموضوعاتها

ونحن حين نقرر هذا لا نبني ذلك الافتراض على أصالة العنصر الشعرى لحسب ، ولكن الأمر بحيث نكاد نضع أيدينا عليه ، فإن هذه الكتب ما كان الشعر هو الأصل فيه ، والعنصر الأول فى تأليفه ، ثم تيجى الأخبار من بعد لتفسير ذلك الشعر وبيان إشاراته ، ككتاب النقائص بين جرير والفرزدق ، ومثل هذا لا مراء فى مكان الشعر منه ، فأما ما عدا مثل هذا الكتاب ، فأنما نقيس منها ما غاب عنا على مابقى لدينا ، فما هو ذا كتاب ككتاب الخيل - وقد ألفت عليه يد الحدثنان - نستطيع أن نتعرف منه أسلوب أبى عبيدة فى أمثاله من الكتب التى وضعها للتعريف بألوان الحياة العربية ككتبه التى وضعها عن بعض أصناف الحيوان ، كالإبازى والحمام والحيات ، أو تلك الطائفة من كتبه التى بناها على بيان المآثر والمنائب والمثالب . فككتاب الخيل هذا لم يحل موضع من مواضعه من شعر يسوقه ليكون شاهدا له . فى سياق كلامه عن الصفات المختلفة للخيل ، ولكنه فضلا عن ذلك يعقد فى آخره فضلا طويلا بضمنه كثيرا مما قاله العرب فى أشعارها من صفة الخيل . فللشعر إذن مكانه الواضح الجلى فيه ، وكذلك الأمر - فيما نحسب - فى أمثاله ونظائره ، وبعضها أمس منه بالشعر وأكثر استدعاء له ، واقتضاء لإبراده . على أنه قد بقي لدينا من بعض هذه الكتب بقايا تدل هذه الدلالة ، وتشهد مثل هذه الشهادة ، مما لا يكاد يدع لدينا شكاً فى الجانب الشعرى لهذه الطائفة من الكتب ، وأن أبى عبيدة استطاع بها أن يصنف الشعر على هذا الوجه ، وإن كان لم يقصد فيها أو فى أكثرها إلى الشعر فى نفسه ، ولكن هذا النوع من التصنيف كان على كل حال الخطوة

الطبيعة التي سبقت التصنيف بحسب الفنون

وبعد فهذا هو أبو عبيدة الراوية الناقد ، وهذا هو مذهبه في الرواية وأسلوبه في النقد . ولعلنا نكون قد استطعنا فيما قدمنا أن نبرز الخطوط الرئيسية لهاتين الناحيتين الوثيقتي الصلة في تاريخ كل أدب ، وأن نحرر القول فيها ونزيل الابهام الذي كان مطبقاً عليها ، قدر ما أتيج لنا أن تبينه من خلال تلك البقايا القليلة والأناثارات الضئيلة المتناثرة هنا وهنا ، مما يتعلل بهذه الموضوع ، بعد أن عبثت بكتبه أعاصير الزمن .

ولقد كان فيما خلفه أبو عبيدة من الكتب كتاب يذكره ابن النديم باسم « كتاب الشعر والشعراء » ، أكبر الظن أنه لو وصل إلينا لاستطاع أن يقيمنا على الجادة ، ويسددنا في سواء السبيل

ولكن مهما يكن من أمر فإن مما يبعث في قلوبنا بالطمأنينة العلمية لهذه الصورة التي أتيجت لنا عن أبي عبيدة الراوية الناقد هو أنها صورة منسقة الأجزاء ، منسجمة مع ما أتيج لنا أن نعرفه من صور حياته الأخرى ، وأنها لم نأل جهداً في اصطناع الأسلوب العلمي الذي يضعه في مكانه الطبيعي من غير تحامل أو محاباة .

له الخاصري